كتابي الأول

في حمّى الإصدارات الجديدة التي تحتل واجهات المكتبات، وتحظى بحفاوة فورية، وتُكتب عنها مراجعات نقدية سريعة، نفتح هذه الصفحة للاحتفاء بالكتب الأولى لكتّاب تكرّست تجاربهم وأسماؤهم، وباتت تفصلهم مسافة زمنية وإبداعية عن بواكيرهم التي كانت بمثابة بيان شخصي أول في الكتابة.

زُلَيْخَة أبوريشة

تراشــق الخفــاء

لم يكن «تراشق الخفاء» (1998 ــ «دار الفارس»، عمان) أوَّلَ مجموعةٍ شعريَّة لي؛ فقد سبقتها «امرأةٌ شديدة الكبرياء تهجو رجلاً»، و«ديوان الذاكرة الثانية»، و«لا قائل إلا المجنون»، و«حديث السوسن العاشق» وعددٌ لم أعد أذكره من المخطوطات التي لم تر النور، ولن تراها. جميعُ ما سبق كانت كتاباتٍ تملأها أحاسيس غير ناضجة، كُتبت عبر سني الأسر الزوجي، كمحاولة لكسر القيد والصعود إلى الشرفة العليا في بيت الحياة. ولكنها لم تكن. وليس «تراشق الخفاء» المطبوع سوى آخرِ حصاةٍ في كوم الحجارة الذي تركتُه في دروجي، خجلاً من ثأثأته وقلةِ مراسه بالهواء الطلق!

لم يكن من الممكن تجاوزُ البوحِ الملحاح، والمجازِ الطوفانيّ بغير المرور عبر فلاتر التجربة، هذه التي يجب أن لا تقلَّ عن زلزال. وهكذا كان. وكانَ عليَّ، فيما يبدو، أن أسبقَ «التراشق»، كتابةً ثمَّ نشراً، بمراجعةٍ جذريّةٍ ليقينيّاتي الشخصيّة، تلك التي آمنتُ بها بحكم التنشئة الصوفية في بيت أمي وأبي، أو مجاملةً للزوج الإخواني. فقد كنتُ أحسنت الظن بالإخوان المسلمين، فتلوَّثتُ ببعض أفكارهم ومفاهيمهم واهتممتُ بإعجاب بمصطفى محمود في كتابه «القرآن: محاولةٌ لفهمٍ عصري» (1969. «دار المعارف»، القاهرة) وكتبِه الإيمانيّة، وسيد قطب في «في ظلال القرآن» (1968، «الشروق»، القاهرة)، وإن لم يدم ذلك غير سنواتٍ قليلة، ولكن وجودي في تماسٍ يوميٍّ مع فقه ابن تيمية متمثّلاً في احتكاكٍ ونزاعٍ لتثبيت سلطة الذكر، ولمحاولةٍ

> تناولتني بالسوء منشوراتٌ سريّة وُزِّعت في عمان وأقلامٌ متأسلمة وصفتني بالعمالة للغرب الكافر وبالتصهين

دائبةٍ لإثبات دونيّة النساء، كان كافياً لكي أستنفر بقيّة ما لديَّ من مقاومة لأعيد قراءةَ النُّصوص المقدَّسة، في ضوء الدراسات الإسلاميَّة التي انكببتُ عليها وحصلت على دبلومٍ عالٍ فيها، وفي ضوء عدد مهول من القراءات المعمَّقة في كتابات محمد عبده، وعلي عبد الرازق، والطاهر حداد، وحسين مروة، ومهدي عامل، وأدونيس، ونوال السعداوي، وطه حسين، وفؤاد زكريا، ومحمود أمين العالم، وزكي نجيب محمود، وصادق جلال العظم، وفؤاد زكريا، وأنور عبد الملك، وجورج طرابيشي، ومحمد أركون، وحسن حنفي، ومحمد عابد الجابري، وعلي حرب، وفاطمة المرنيسي وغيرِهم وغيرهم. وجميعُهم، بطبيعة الحال، علِى الشاطئ الآخر من الفكر. وكان أن توصَّلتُ إلى عدد من الخلاصات نشرتُ بعضها، فهاجَ لها الوسط الإخواني في الأردن وخارجه، مما دفع الشيخ علي الطنطاوي السوري اللاجئ في السعودية إلى أن يخصص لمقالةٍ لي حلقة كاملةً من برنامجه الإذاعي لشتمي وتكفيري والتحريض عليّ (كان هذا عام 1981). وبينما كنتُ أدير معاركي مع الظلامية التكفيريّة في مدرسة النقل، كنتُ في الشِّعر أَقلِب صفحةَ الحِجاج العقليّ وأذهبُ إلى الوجدان في أعلى سماواته. وكان هذا مسوِّغاً تكفيرياً آخر ومبرِّراً للحكم الأخلاقيّ على سيرتي الشخصيَّة من خلال كتابتي الإبداعيّة، فتناولتني خطبُ المساجد (إحداها كانت مذاعةً على التلفزيون الأردني، والخطيب كان وزير الأوقاف آنذاك الشيخ ابراهيم زيد الكيلاني)، كما تناولتني بالسوء منشوراتٌ سريّة وُزِّعت في عمان وأقلامٌ متأسلمة وصفتني بالعمالة للغرب الكافر، وبالتصهين، وبالانحلال الأخلاقي والدعوة إليه.

كان الشعرُ لي ملاذاً آمناً من هذا الصخبِ المجتمعيّ، على ما في مقاربتِه من لوعاتٍ عظيمةٍ ينخلعُ لها القلبُ الذي كان يمشي في هواء الحريّة مشيَ رعناء. كنتُ بين أن أُخلِّصَ لمنبتي المحافظ في قيم الشعر والكتابة حيثُ افتُتِنتُ بمصطفى صادق الرافعي، وانحزت إليه في معاركه مع العقاد وطه حسين، وكذلك بمحمود محمد شاكر، ومعاركه مع طه حسين ولويس عوض، أو أن أذهبَ إلى خيانة هذا المَنبت ظاهراً وباطناً. وكان الخيارُ صعباً، لأنَّ ثقافةً طويلةَ المدى، بعيدةَ الغور تقفُ في العمقِ بيني وبين خياراتي الجديدة. وكان هذا مبعثَ قلقٍ شديد. وقد انعكسَ هذا القلق في خط سير مقالاتي في «الرأي» الأردنيّة، حيثُ سجَّلتُ تراجعاً أحياناً عن خيارِ الحداثة عندما كتبتُ مؤيّدةً تعددَ الزوجات.. وكان ينبغي رصدُ الابتسامات العريضة التي ظهرت على وجوه الإخوان وهم يُثنونَ على «فصاحتي»، ويدعونني إلى أن يكون لي مجلسُ وعظٍ أَهدي فيه النساءَ إلى الدين الحقّ الذي تبلور في هذه المقالة التافهة! وكانوا قد حفيت ألسنتُهم وهم يحاولون إقناعي أن أكفَّ عن مقالاتي التي أهاجمُ فيها الحجابَ وأدافعُ فيها عن المرأةِ من منظورٍ إسلاميٍّ، لما في ذلك من حرج للإكس (الزوج). كانوا يطلبونني إلى بيت الطاعةِ الفكريّ، حيثُ لا ينبغي لي أن أخرج عن الخط الفكريّ للزوج، فيكفي أنه «سمح» لي أن أنشر! لكني كنتُ عنيدةً أتحجَّجُ بالتعدّديّةِ وانفتاح النصِّ على تأويلاتٍ شتى. وقطعتُ شوطاً في فضح السلوك الإخواني في تحجيم النساء ورددتُ عليهم في مواقف عدّة، منها منعُ الاختلاط في وزاراتهم!

على أنَّ أوّلَ ديوانٍ صدرَ متأخِّراً عام 1998، أي بعد 32 سنة من تخرُّجي من الجامعة. وهي مدَّةٌ مهولةٌ لبياتٍ شتويٍّ، ولكنني لم أكن خارجَ الكتابةِ بل خارجَ شرطها الأول: الحريّة! كنتُ أكتبُ أفكاراً ونصوصاً كيفما اتَّفق، وكان عليَّ بعدما ملكتُ مقاديرَ ذاتي عام 1987 بصدور «في الزنزانة» عن الهيئة المصريّة العامة للكتاب، أن أرمحَ في الآفاق أستنشقُ الأكسجين، وأن أجدِّدَ معرفتي بالشعرِ وأُعيدَ تعريفَه لديّ. وكان عليَّ عبر دواويني جميعِها أن أنقلَ نفسي، روحيّاً ولغويّاً، من بابٍ إلى باب في المجازِ وقراءةِ الكونِ ورصدِ وقعِه عليّ. وبذا كانت كتبي في الشعر لا تشبهُ بعضَها؛ حيثُ يمثِّلُ كلُّ واحدٍ منطقةً منه دخلتُها وعبثتُ فيها بما عاينتُه من وجدٍ ومن جوى. فالحبُّ هو شاغلي الأكبر، وبه بنيتُ وجودي الماديَّ والمعنويَّ، وهو السلكُ الماسيُّ الذي يلضمُ شعري كلّه. وإذا كان الصوفيُّ يتوسَّلُ إلى حبِّه القدسيّ الربّانيّ بصورٍ بشريّة، فإنَّ مزيجَ الحسيِّ الدنيويّ بالنورانيّ العلويِّ عندي هو الشعر، وهو ليسَ صدامَ نقيضين عندي، بل تآلفُ كأنّه مِزاجُ ثلجٍ بشرابٍ مسكر. فبمقدار ما كنتُ أحاولُ أنسنةَ الحبيبِ وفهمَ بشريّتَه، سرعان ما كان يتحوَّلُ في وجداني إلى كينونةٍ إلهيّة، فكأني ما زلتُ في عصور التاريخ الأولى أبحثُ في بدائيَّة الأفكار والمشاعر عن غيبٍ عظيم يلبّي نزوعي نحو عبادة الكامل، ولهُ ألفُ ذراعٍ في الخير والجمال. كاملٌ في الحبّ وما من تساهلٍ. ومع محاولاتي المضنية أن أخرج من المثاليّة إلى التجريبيّة الواقعيّة، إلا أنني في الحبّ ما زلتُ حتى اللحظة الراهنةِ أسيرةَ خيالِ الأوائلِ وسطوةِ أحكامهم المطلقة. فأنا في النهاية ابنةُ كَمالَيْن: الأول منهما الصوفيّ، شربتُه وطَعِمتُه وتنفَّستُه في بيت أمي وأبي، والثاني الشعرُ الجاهليُّ، تمشَّيتُ فيه وتشمَّستُ وتظلّلتُ نخيلَه العالي. فالجاهليُّ العاشقُ بدا في معلقاته عابداً لإلهةٍ عشتاريّة، ترفلُ بصفات الكمال في كلِّ شيء؛ جسداً وعُلوَّ شأنٍ في الخير والحفاوة والقدرة والأبَّهة والجمالِ والجود. فقد صاحبتُ هذا الشعر منذ سني الجامعة وعبر برنامجَيْ الماجستير والدكتوراه مع عميد أساتذة الشعر الجاهلي الدكتور هاشم ياغي، الذي كان له أسلوبُه الفذُّ في سبرِ أغواره، والكشفِ عن بديعِ بنائه وصُوره ولغتهِ. ولم أكن لأدري أنَّ شغفي بهذا الشعر كان يرويهِ نهرُ التصوُّف، على ما بينهما من بُعدٍ ظاهريّ. بل سيتأكَّد هذا الولعُ بالكمال في التتلمذِ على الوجدانِ العُذريِّ في بذله النَّفسَ والذهابِ بها إلى آخرِ قطرةٍ من حياة. فالتصوُّف الذي كان يرحِّبُ بنكران الذات، بل يدعو إليه كشرطٍ أوَّليٍّ للارتقاء في المراتب، كان يلتقي مع آلِ عذرةَ ممن أهلكهم الحبّ، وكنتُ بطبيعة الحالِ ضدَّ أيِّ تفسيرٍ له على أنه نتاجُ عاطفةٍ مقموعةٍ لم تكتمل بلقاء الجسد، في إشارةٍ إلى تقليدٍ للعرب في منع زواج الشاعر ممن شبَّبَ بها، خوفَ سوءِ الظنّ! كانت صورتي في شعري كعاشقةٍ، لا تختلفُ من حيثُ البنيةُ عن نشيجِ مريدٍ في طريقةٍ عصا، فانهجرَ فساح على وجهه! وكنتُ كما قالت الشيخة فاطمة الغرناطيّة عن تلميذها الشيخ محيي الدين بن عربيّ: إذا دخلَ دخلَ بكُلِّه، وإذا خرجَ خرجَ بكُلِّه. ولذا كان الخروج من الحبِّ في شعري يعدلُ ألمَ الدخول فيه. وكان السببَ دوماً انزياحُ الشخصِ عن معنى الكمال، أي التنازلُ عن صورة الإلهِ والوقوعُ في البشريّ وضعفِه. وهذا يُفسِّرُ الصرامةَ التي أهجو بها المحبوبَ، ولا علاقة لذلك بفكري النِّسوي أو موقفي المتصوَّر من الرجل. وسأضربُ على ذلك مثالاً بقصيدتين «فصلٌ من رائحة المشهد وصورة الإخلاص» (دفتر الرائحة، 2014، وزارة الثقافة، عمان، ص ص 206-216) و«حقلُ نرجسٍ للخائن» (م. ن. ص ص 217-222).

وإذا كان ديواني «تراتيلُ الكاهنة ووصايا الريش» (1999، وزارة الثقافة السوريّة، دمشق) ينشغلُ بتلقيط الشِّعر من مفرداتِ الحياةِ والحضارة والطبيعةِ، بتأثُّرٍ ما، أراه الآن واضحاً، بالشعر الجاهليّ، فإنَّ أحدَ أهمِّ كتبي «دفتر الرائحة» (2014، وزارة الثقافة، عمان) يذهبُ إلى معنىً ربَّما يكون جديداً في الشعر العربيّ من حيثُ انشغالُ ديوانٍ كاملٍ به، أقصد الرائحة. فقد فتنني أني عثرتُ، وأناَ في المراهقة، في اسطنبول على رائحة عكا، مدينةِ طفولتي الأولى. إلى أن قرَّرْتُ الإفصاحَ عنها، بعد نصفِ قرنٍ ونيّفٍ، في مشروعٍ تقدَّمتُ به إلى برنامج التفرُّغ الإبداعيّ في وزارة الثقافة الأردنيّة. فالكتابُ بكليّته مبنيٌّ على الرائحة، سواء أكانت جسداً أم تاريخاً، أم مكاناً، أم أشخاصاً، أم شيخوخةً، أم حبّاً، أم معنىً. مما منحني أن أضيفَ إلى تجربتي بُعداً في تقلُّبِ أحوالِ الحبّ وأحوالِ اللغة.

ذلك أنَّ اللغةَ عندي مركزٌ يعادلُ الوجود. إذ عجنتُها وعجنتني، وعاشرتُها وعاشرتني، كما لو كنا الأمَّ وابنتَها، أو توأميْ حرمان، حيثُ تحنُّ إحدانا على الأخرى. وإذا كان الشاعر الكبير أدونيس يرى أن اللغةَ وطنُه، فهي لي كذلك أيضاً. إنها بيتي ومأواي، بل هي مشيمتي، وآلة صناعتي، ووعاء همّي، وحقلُ نزهتي، ومرتقايَ. ولذا تقفُ اللغةُ في واجهةِ شعري، تحدِّدُ مساري في التعاملِ معها، وهويّةَ تنقُّلي في المقامات والأحوال. ولأنَّ لها بي قويَّ الثقةِ، من طويل المسارَرة والمعاشرة، فإنها تُسلمُ نفسها لي أصنعُ بها ما أشاءُ، وتُغدقُ. فاللغةُ مادةُ إبداعي، وأيُّ خللٍ في التعاملِ معها، سيوجدُ خللاً كبيراً في أعمالي. وعلى ذلك كان اشتغالي على اللغة يوازي انشغالي بالحبّ، لأنَّ الجَمالَ الذي كان مبتغايَ لم يكن يتأتّى لي دون جماليّات اللغة، تلك التي تصلني بالنزوع الأوَّل إلى النُّطقِ وبتاريخِ وجودها البديع.

ولما كانت اللغةُ على هذا النحوِ في حياتي، ولما كنتُ اعتنقتُ مذهبَ النِّسويَّة في تفسير العلاقات الإنسانيّة، فقد وجدتُني أبدأ في العربيّة فرعاً جديداً من فروعِ المعرفة والنقد اللغوي الجندريّ، وبذا كانَ كتابي «اللغة الغائبة: نحو لغة غير جنسويّة» (1996، مركز دراسات المرأة، عمان) أوَّلَ كتابٍ بالعربية في معناه ومبناه. تلاه كتابي الثاني «أنثى اللغة: أوراقٌ في الخطاب والجنس» (2009، دار نينوى، دمشق). وما من ضرورة للقولِ إنَّ أحداً من النقاد لم يتناول حتى الساعة أياً منهما بالنقد والدرسِ. مع أنَّ الأوَّلَ منهما يُدرَّسُ في عدد من الجامعات ومراكز البحث النِّسويِّ العربيّة، ومنها قسم اللغة العربيّة في الجامعة الأردنيّة. لقد حرمني من الحفاوةِ النَّقديّة التي تشبه في شروطها الحفاوةَ الرسميّة، التباسي بموضوع تحرّر المرأة، الذي يشكّلُ غولاً مرعباً لقوى الشدِّ العكسيّ، وأصحابِ نظريّات الثوابت في المجتمعِ والكتابة، حتى أنَّ أحدَ الأساتذة (ج. ع.) في الجامعة الأردنيّة علّقَ على رقعة الدعوة إلى حفل توقيع كتاب اللغة الغائبة، دون أن يراه أو يطلعَ عليه، تعليقاً لا يختلفُ عن شتائمِ شيوخِ الجوامع، ولسوء حظِّه كانت ابنتي حاضرةً فسجلت لي جميع ما فاضَ به لسانُه العطرُ العفّ! كنتُ أدفع ثمنَ النضال للمرأة بفواتير شتى، ليس آخرَها ولا أهمَّها لقمةُ العيش، حيثُ نُحِّيَ كومُ خبرتي كوطنٍ لأوبئة الحداثة وتحرير النساء. ولكَم كان أمراً مخيِّباً للآمال تجاهلُ النقد، لأنه يشي بمقدار ابتعاد أهله عن المكتبة والإصدارات الجديدة، وبمقدار نأيه عما يتجدَّد من معارف على الساحة العالَميّة.